

الخط العربي من الحاكم حتى المكارم

د. سامي الرفاعي

الخطُّ في دنيا الإلفِ باءِ العربية، عريقٌ أصيلٌ ثابتٌ الوجود. يقول "ابن خلدون": "إن الخطَّ والكتابة من الصنائع الإنسانية، والكتابة من خواص الإنسان التي يُميِّزُ بها عن الحيوان¹ ثم يقول في موضع آخر: يُحكى لنا عن مصر أن بها معلمين مختصين لتعليم الخط العربي".²

"كان الخطُّ العربي بالغاً مبالغته من الإحكام، والإتقان، والجودة، في الدولة "التبابعة"، لما بلغت تلك الدولة من الحضارة والترف، وهو المُسمَّى بالخط "الحميري"، وانتقل منها إلى "الحيرة"، لما كان بها من دولة "آل المنذر" نساء "التبابعة" في العصبية، والمجددين لمُلِكِ العرب بأرض العراق".³

"قومٌ لهم ساحة العراق إذا ساروا جميعاً والخطُّ والقلم".

إن أهل الحجاز إنما لَقَّوْها من "الحيرة" ولَقَّها "الحيرة" من "التبابعة" و"حَمِير"، ومن "حَمِير" تعلمت مصر الكتابة العربية، وكان "لحمير" كتابة تُسمى المُسند... يمنعون من تعلمها إلا بإذنه⁴. والخطُّ العربي، حباه الله، عند نزول الوحي الإلهي على رسوله محمد، تكريماً مميّزاً.

(اقرأ وربك الأكرم _ الذي علّم بالقلم _ علّم الإنسان ما لم يعلم)⁵

تَجَسَّدَتِ الكلمةُ قرآناً مسطورهً كلماته في "اللوح المحفوظ"، فيها الهداية والرحمة للناس. فاقترن القلم بالعلم، وميَّزَ اللهُ الإنسانَ المؤمنَ عن غيره من مخلوقاته بالعلم والعرفان وإدراك الجمال. ونظريّة الجمال في الإسلام كما يراها "الغزالي"، انطلقت من كونها طريقَ إيمان أنشأت بين الإنسان والألوهة تناغمًا، وانسجامًا وتوافقًا، وهي قد انطلقت من نص القرآن الكريم: (ولكم فيها جمالٌ حين يُرِيحون وحينَ تَسْرَحُونَ).⁶ كما اعتمدت نظرية الجمال في الإسلام على الحديث الشريف: "إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمال".⁷ إذاً فمحبّة الشيء دليلٌ على جماله⁸، ومحبّة العبد لله، تقتضي محبة كلماتٍ وحيه الجميلة، ويُفترض في هذه الحالة أن تكون كتابتها جميلةً. والخط العربي، وهو وسيلة تسطير الآيات القرآنية، يجب أن يتخطى الجمال الذي يدركه البصر:

"البصيرةُ الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المُدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية أتم وأبلغ...⁹

"كل شيءٍ جماله وحسنه في أن يحضَرَ كماله اللائق به الممكن له... فإذا كانت جميعُ كمالاته الممكنة حاضرة فهي في غاية الجمال" ¹⁰

من هنا كان على المسلم المؤمن الذي يبغى كتابةَ آيات الله، أن يتعظَّ بالحديث الشريف: "إن الله يُحبُّ من أحَدكم إذا عملَ عملاً أن يُنقته".¹¹ إذا كان الإتقانُ فريضةً في العمل، فيكون، الإتقانُ أولى عند كتابة آيات الله. والإتقان بنظر المسلم المؤمن هو "منطق التجلي" أي أن الإتقان بنظر الإسلام هو الجمال ذاته الذي يقودنا نحو السمة المُميّزة والموحدة في الفن الإسلامي، فتجليات الجمال ستغيب إن غاب الإتقان. ومع إيماننا بأن جمالية الفن الإسلامي، وأهم عناصره فن الخط العربي، إنما هي جمالية خفية غير مرئية، "جمالية يستشفها الذوق، وتُدركها البصائر، فمُدركُ البصيرة في التعرف على الجمال ومحبته، أعلى بكثيرٍ من مُدركِ الحس، وكمالات المعاني الباطنية أرفع بكثيرٍ من كمالات الظاهر، ولما كانت صفحات الباطن أقصى درجات الكمال، كان الحب في حالتها أعلى درجات الحب، ولما كانت أسباب المحبة لا يُنصَرُ كمالها إلا في حقَّ الله تعالى، فلا يستحق المحبة إلا هو"¹² "ولكونها جماليةً الباطنيةً كان لا بد لها من ظاهر تختفي وراءه وتتنبأه" إن مفهوم الكمال الجمالي في نظر الغزالي، هو مجموعة شروط ومزايا تقنية، نُقرُّ من خلالها المدى الذي بلغة العمل الفني من الجمال. ويُقدِّمُ "الغزالي" مثلاً على ذلك بتعداداه جمالات الخط الحسن فيقول: الخط الحسن كلُّ ما جَمَعَ ما يليقُ بالخط، من تناسبِ الحروف وتوازيها، واستقامةٍ ترتبها، وحسن انتظامها...¹³

إذا كان الإتقان بنظر الفلسفة الإسلامية، مرادفاً للجمال، فإن مقتضيات الجمال "الجلال"، بمفهوم "ابن عربي"¹⁴. وكل جمالٍ "فانه حيث يشدُّ ظهوره، يُسمى جلالاً، ومبادي ظهور الجلال هي الجمال. فكل جمالٍ جلال، ولكل جلالٍ جمال"¹⁵. الجمال في الخط العربي، أقدس أنواع الجمال والجلال وأرقاها اكتسب قدسيته الخاصة من كتابة القرآن الكريم، فاستقل بذاته في الفن الإسلامي، وأقام لنفسه جماليةً روحيةً، هي من أهم السمات التوحيدية في الفن الإسلامي.

الخطاط مؤمناً مبدعاً، والقلمُ مقدَّسٌ مُفضَّلٌ، فهو "السابق"، والكتابةُ مطهرة متجلية فهي "التالي": (ن والقلم وما يسطرون) ¹⁶ إن الله يُقسم بالقلم وبما

يسطرون. من تراتبية النصِّ القرآن نجدُ أن الله قدَّم القلمَ على النصِّ وفي هذا التقديم

تفضيل . يقول ابن عربي: "إن الله تعالى الذي فتح عالم التكوين والتدبير، بإيجاد "القلم الأعلى" و" اللوح المحفوظ"، مَظَهَرِيَّ عالم التدوين والتسطير..."¹⁷

القلمُ إذن مبتدى الخلق، فما هو هذا القلم ؟ : يقول " ابن عربي": ليس فوق القلم موجودٌ مُحدَثٌ... إنما نونُه، التي هي الدواة، عبارة عما يحمله في ذاته بطريق الإجمال من غير تفصيل، فلا يَظْهَرُ لها تفصيلٌ إلا في اللَّوْح الذي هو " اللوح المحفوظ". فهو (أي القلم) محل التجميل، والنفس (أي اللوح المحفوظ) " محل التفصيل".¹⁸

ومن المعلوم أن القلمَ عند المتصوفة هو "العقل الكلي".¹⁹

يقول " ابن عربي " "أولُ متعلمٍ قَبْلَ العِلْمِ، بالتعليم لا بالذات، العقلُ الأول، فعَقَلَ عن الله ما عَلمَهُ، وأمره أن يكتبَ ما عَلمَهُ في اللوح المحفوظ الذي خلقه منه... فأولُ أستاذٍ من العالم هو "العقل الأول"، وأولُ متعلمٍ أَخَذَ عن أستاذٍ مخلوق هو " اللوح المحفوظ"... و هو عند العقلاء "النفس الكلية"، وهي أولُ موجودٍ انبعاثي منفصلٍ عن العقل"²⁰

فلسفةٌ صوفيةٌ إسلاميةٌ قال بها كبار المتصوفة وشيخُهم " ابن عربي"، هي عينها التي قالت بها من قبل فلسفة " الحاكم بأمر الله " .

في القرن الرابع هجري (العاشر ميلادي) بلغ الخطُ العربيُّ أرقى مراتب الجمال. فإبداعات "ابن مقلة" و"ابن البواب" وغيرهما ملأت عالم الإسلام فازدانت معالمُ الحضارة الإسلامية بأبهى ما رآته العين وأدركته البصيرة. أقام " ابن مقلة " نظاماً هندسياً للحروف العربية معتمدا على الخط المستقيم والخط المنحني كوحدة أساسية، تُشبه إلى حد بعيد الوحدة المكونة من الساكن والمتحرك التي اعتمدها "الفراهيدي" في نظام البحور الشعرية. وتشبه أيضا ما يعتمده الموسيقيون في تأليف ألحانهم. فكأنهم جميعاً خطاطون وشعراء وموسيقيون وهم بين مُستقيمٍ ومُنْحَنٍ، وساكنٍ ومتحركٍ، وصامتٍ ومصوَّتٍ، يقفون موقفَ إجلالٍ وإيمانٍ تجاه الغيبِ والوجود، الشريعة والحقيقة، الظاهرِ والباطن، يتلمسون في سعيهم نحو الجمال بلوغَ مقامِ الإبداع.

في عام 358 هـ تحقق للفاطميين أعظمُ انتصاراتهم بفتح مصر على يد المعز، جدَّ "الحاكم بأمر الله". فأنشأوا عاصمتهم "القاهرة" مدينةً عظيمةً عَبَّرَتْ عن كياناتهم، وحفظت لهم مكاناً بارزاً في التاريخ. أمَدَّوها بكل ما يجعلها مدينةً عمرانيةً، ثقافيةً، حتى غَدَتْ طليعةَ مدن الإسلام.

كانت دولة الفاطميين أعظم الدول الإسلامية التي استقرت بمصر وأبقاها أثراً وأجدرها بالدرس والبحث، وأبعثها على التأمل والعطف. وإن كان للدولة الفاطمية سحرها الحضاري الخاص، فإن عصر الحاكم بأمر الله هو بلا ريب أهمُّ وأعظمُ مراحلها.

من المؤسف أن تكون جُلّ مصادر تاريخ العصر الفاطمي التي وضعتها أقلام مؤرخين عاصروا الحكم الفاطمي، قد اندثرت. رغم ذلك فقد وصلنا منها الشيء الكثير عبر المؤرخين اللاحقين الذين أخذوا عنها واستشهدوا بها. حتى لَيُمْكِن القول أن الفترة الفاطمية، وأخصُّها فترة الحاكم بأمر الله، هي من أغنى فترات التاريخ الإسلامي بالوثائق والمراجع وإن شأبها الكثير من التناقض.²¹

لعلّ التناقض يعود إلى شخصية "الحاكم"، التي أجمع المؤرخون على أنها شخصية استثنائية.²² SACY وأنها أعرب وأغمض شخصية في تاريخ الإسلام، "عان" ²³ وبيالغ العلامة المستشرق "Muller" فيقول عن "الحاكم": بأنه من أغمض الشخصيات التي عرفها التاريخ، وإن هذا الأمير هو أعجب مَنْ أُنجبت أسرته... ثم يقول إن حجاباً كثيفاً قد أُسِغَ على صورته فلا نستطيع أن نظفرَ منها إلا بلمحات.²⁴

هذه الشخصية المُمَيَّزة التي طَبَعَتْ تصرفات الحاكم بأمر الله وأوقعت المؤرخين بهذا التناقض الذي شاب كتاباتهم عنه؛ إلا أنهم أجمعوا أن سيرته الثقافية كانت ثرة في العطاء والإبداع وهو الأمر الذي يهمننا في هذا البحث. يقول الباحث "محمد علي بيهم" في كتابه: "قوافل العروبة ومواكبها" "ولعلَّ زمن الحاكم بأمر الله، كان أزهر أيام الفاطميين ثقافة، فقد كان "هذا الخليفة يعطف على أهل العلم والفضل، ولا سيما الفلاسفة، وَيَشْعُرُ بلذّة عظيمة في الاستماع إلى مناظراتهم." ثم يقول بيهم: "ويخال إليّ أن الشذوذ الذي يُنْهَمُونَهُ به إنما هو من قبيل شذوذ عبقرية النوابغ."²⁵ المهم أن نشير هنا، إلى أنه كان للثقافة في مصر عهد الفاطميين شأنٌ عظيم، فقد قرَّبوا العلماء والموهوبين، وأجزلوا لهم العطاء، حتى تهافت هؤلاء على مصر فغدت تعج بهم عجيجا، وأنكبَّ بعضهم على علوم الفلسفة، والرياضيات، والطب، والهندسة، وأشتهر منهم "العققي"، و"ابن يونس" أيام الحاكم بأمر الله يرفعى العلماء خاصة ويمدهم بالمال والحماية لينصرفوا مطمئنين إلى إبداعاتهم.²⁶

تولّى الحاكم الخلافة عام 386 هـ، صبيّاً له من العمر إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام. "كان منذ تولّيه الخلافة يركب إلى الميدان في كلّ يوم، ويجلس في مكانٍ يُدعى "الطارمة"، وقد اتخذ منه مجلساً للشعر والشعراء."²⁷ يُنَوِّهُ "المقريزي" بثقافة "الحاكم" وبذوقه، فيقول: "إن "الحاكم كان إذا جلس وأنشده الشعراء قصائدهم، وقد حضر في المجلس من له درايةٌ بالشعر، كان "الحاكم" له من الحدقِ في ذلك ما ليس لغيره، يستعيدُ الجيّد والنادر ويكافئُ صاحبه."²⁸

تدلنا نصوصٌ على أن اهتمام "الحاكم" بالشأن الثقافي كان منذ بداية حكمه. ونعرف أن "الحاكم" رغم صِغَرِ سنه، كان قد تَمَرَّسَ في فهم المعاني وإدراك الصعب منها، وأنَّ عبقريته كانت مُبَكَّرَةً .

ولن يكون الأمر غريباً إذا علمنا أن مكتبة القصر الذي تَرَى فيه " الحاكم بأمر الله"، كانت تحوي أكثر من "ألف ألفٍ وستماية ألف كتاب" وأي مليون وستماية ألف كتاب"، وكان فيها الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة.²⁹ وأن والده "العزیز" كان من كبار الفقهاء والعارفين بفلسفة الدعوة الفاطمية، وأن مجالس الدعوة كانت تُعقد يومياً في هذا القصر. وإذا عرفنا أن "العزیز" ليس له من الأبناء الذكور سوى "الحاكم"، وأنه كان يُفَرَّبُ ابنه "المنصور" منذ نشأته ويُدخله إلى مجالس الحكم ومجالس الدعوة، يُتَقَفُّ بها ويُعَدُّ لتولِّى الحكم بعده، وهو قد هياً لوحيدة المؤدبين والخطاطين والعلماء لتتقيفه.

وهكذا نشأ الصبي على سعة في الثقافة، وعمق في التفكير، وجديّة في التصرف. وإذا أضفنا إلى ذلك كله ما عرف عن "الحاكم" من نبوغ وعبقريّة، وقوة شكيمّة، لأدركنا لماذا كان هذا "الكائن العظيم" استثنائياً. يقول "ابن الصيرفي": "كان الحاكم صبياً حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة"، بيّد أن هذا الفتى القويّ ّ النفس، كان حاكماً حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين، ويُشرف بنفسه على مصائر هذه الدولة العظيمة، ويُبدي في تدبيرها نشاطاً عقلياً مدهشاً، وهو يُؤثر العمل المضني على مجالس اللهو واللعب التي يغمُرُ تيارها من كان في سنه".³⁰

وكان الصبي العبقري يثق برأيه ويعتصم بثقافته، فقد كتب لقاضي قضااته "الحسين بن النعمان" عام 391 هـ. عند تعيينه له: "استعن بالله عزّ وجلّ، ثم بنا، ولق من جميل رأينا ما يسعدك في الدنيا والآخرة".³¹ لقد اهتم الحاكم بالثقافة وال عمران، وخصّ الخط العربي بكبير اهتمامه والشواهد كثيرة، نورد بعضها مثالا لا حصراً:

أولاً - "كان لا بد للخليفة من جليسٍ يُذكره ما يحتاج إليه من كتاب الله، وتجويد الخط وأخبار الأنبياء والخلفاء".³²

ثانياً - الجامع الأنور - عمرة الحاكم وأشرف على تزيينه شخصياً، وأغناه بالخطوط العربية. قد أورد "المقريظة" نقلاً عن "أن عبد الظاهر"، "كتاب الروضة البهية": "أن ما بني من هذا الجامع في أيام الخليفة العزیز كان سوراً فقط وأن الحاكم هو الذي بنى الجامع الأنور.³³ ولقد زرت شخصياً هذا الجامع بمنتصف عام 2004 وبحث عمّا تبقى من آثاره الحاكمة، فرأيت شريطاً من الآيات القرآنية حُفرت بالخط الكوفي على الخشب، وهو كان ينتظم عناصر الجامع كلها، ويعلو الأروقة، وجدار القبلة وقبة المحراب، ويستمر عبر جميع الجدران المحيطة دون انقطاع³⁴ كأنّ هذا الشريط المحييط بالجامع الأنور، قد قُصِدَ منه أن يكون تميمة قرآنية مباركة تقي الجامع كل شرور الدنيا. وتتوزع أرجاء الجامع خطوط عربية رائعة كثيرة (ستكون موضع بحث مستقل سنضعه في المستقبل)

ثالثاً - باب خشبي أهده " الحاكم بأمر الله" للجامع الأزهر، شملت الرياضة العربية الجميلة المحفورة جميع أجزائه، ما عدا القسم الأعلى من درفتيه، فقد زينتها كتابةً بالخط الكوفي المزوي وهو أمر ندر وجوده على أبواب الجوامع الفاطمية.³⁵

رابعاً - أنشأ "الحاكم" عمائر كثيرة أهمها: جامع "راشدة" 393 هـ، وجامع "المفس"، وجامع "الإسكندرية" ومُصَلَّى فخم في سفح "جبل المقطم"، وغيرها الكثير من المدارس والمستشفيات والمؤسسات. وكان "الحاكم" يهتم شخصياً بتزيينها وتضمينها كثيراً من الخطوط العربية.³⁶

خامساً - ولعل أهم عمل ثقافي عمراني قام به "الحاكم" هو إنشاؤه "دار الحكمة" أو "دار العلم" عام 395 هـ جاعلاً منها جامعةً دينية علمية كبرى. " وقد جلس فيها العلماء والفقهاء ، وحُمِلت الكتب إليها من خزائن الفقهاء المعمورة، وجلس فيها أيضا القراء، وعلماء الفلك، وأصحاب النحو واللغة، والأطباء، والخطاطون النساخون، وقد فُرِشت هذه الدار وزخرفت وأقيم لها قُوامٌ وحُدَامٌ وفراشون وغيرهم رُسِموا بخدمتها. وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين "الحاكم بأمر الله"، من الكتب التي أمر بحملها إليها، من سائر العلوم الآداب والخطوط المنسوبة، ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك وأباح الحاكم ذلك كله لسائر الناس... فكانت له من المحاسن الماثورة التي لم يُسمع بمثلها أبداً، ويقول "المقريزي": "إن الحاكم بأمر الله" قد أمدَّ "دار العلم" بخزائن مليئة بالمخطوطات الجميلة من صناعة "ابن مقله" و"ابن البواب وغيرهما. وأمدّها بالمحابر والأقلام والورق المعروف "بالمنصوري" نسبة لاسم" الحاكم بأمر الله المنصور"، واستقدم لها كبار الأساتذة من كل اختصاص: الطب - الفلسفة - الرياضيات - علم الفلك - الهندسة - الشعر - الخط العربي، وقرَّب العلماء والموهوبين وأجزل لهم العطاء.³⁷

وخلاصة القول فإن "الحاكم"، هذا "الكائن العظيم" كان صاحب مخطوط ثقافي شامل لكل مملكته، عمل على تنفيذه بمراسيم وقرارات دلت على عبقريته، وعلى أن رؤيته المستقبلية استشفت الزمن الآتي بعقلية سبقت زمانها بمئات السنين. ونحن نرى أن هذه السيرة بحاجة إلى دراسة معمقة لأنها حتى الآن لم تعطى حقها من البحث.

أضاع الزمن كثيراً من أحداث التاريخ . هذا ما حصل للأمرء التنوخيين في لبنان . تلقوا دعوة التوحيد في مُقْتَبَلِهَا، فاستجابوا لها . ولم يطلُ بهم الزمن حتى كانت محنتهم الكبرى أيام الخليفة الفاطمي "الظاهر" . علقت دعوة التوحيد ثم أغلق بابها في عام 434 هـ.³⁸ أو في عام 435 هـ³⁹ استتر "التنوخيون" وانغلقوا على أنفسهم تقيّةً منهم لدرء المخاطر.

وباستتارهم استتر بعض من تاريخهم وضاع البعض الآخر وقلّت المراجع والمصادر، وندرت الوثائق، وتكاد تتعدم المواد الأثرية. ولو لم يُقدّر لهم أن قام بعض أبنائهم بالتأريخ لهم، لأمحت ذكراهم واندثرت آثارهم.

منذ وجودهم في لبنان، كان "التتوخيون" قومًا قتالًا وحرب. مهمتهم حماية الثغور العربية من الأعداء. كانوا أهلاً للمهمة، خاضوا الحروبَ وسجلوا روائعَ البطولات في ميادين الوغى. بعد استجابتهم لدعوة التوحيد، انشغلوا إلى جانب مهمتهم الأساسية، بما قاتلوا وقوتلوا من أجله.

في النصف الأول من القرن الخامس عشر ميلادي، قام منهم مؤرخٌ هو الأمير "صالح بن يحيى التتوخي"، جمع أخبارهم من المستندات الخطية، والروايات الشفهية، ووضع كتابه "أخبار السلف من ذرية بحت بن علي أمير الغرب". وقد حقق هذا الكتاب الدكتور "كمال صليبي" ورفاقه بعنوان "تاريخ بيروت". هذا الكتاب الذي: "شاءت الأقدار أن يبقى دون غيره، تاريخاً لهذه الأسرة، من أوائل عهدها في إمارة الغرب، وحتى منتصف القرن الخامس عشر.⁴⁰

ثم كان المؤرخ "أحمد بن سباط" واضع كتاب "صدق الأخبار" والمتوفي سنة 1520م أو بعدها بقليل وقد أخذ عن "صالح بن يحيى" وأكمل بعده مسيرة التاريخ للأمرء "التتوخيين" حتى بدايات الحكم العثماني.⁴¹

رغم ندرتها، فإن المعلومات التي قدمها لنا "صالح بن يحيى" وأحمد بن سباط" عن الأمرء "التتوخيين" كانت مهمة جداً. وقد لفتتني في هذه النصوص صفات وميزات شملت أكثر هؤلاء الأمرء أهمها:

أولاً: أن أكثر الأمرء، كانت لهم صنعة يُتقنونها ويعتاشون منها. أمرءٌ على الناس يحكمون بينهم بالعدل ويعتاشون من عرق جبينهم لا من جيوب رعاياهم؟ عجيبٌ هذا الأمر، إنه لعمري تعفّف قديراً نظيره في تاريخ الحكام. ولن نعجب، إذا تذكرنا أن الخليفة "الحاكم بأمر الله كان يحكم بالعدل، ويتعفف عن أموال رعيته وأن "التتوخيين" ساروا على مذهب إمامهم.

ثانياً: إن أكثر مهنة أتقنها الأمرء وبرعوا بها هي مهنة النجارة والرياسة "أي الحفر على الخشب والذهب وغيرها من المواد وهذه مهنة فنية.

ثالثاً: أن بعض الأمرء أجاد صناعة الشعر والقريض.

رابعاً: أن بعض الأمرء كان يُتقن فن "العمائر" ويعرف علم الهندسة والرسم ويعمر الجسور.

خامساً: أن أغلب الأمرء امتاز بالحلم والعلم معا أي "بالحكمة".

سادساً: أن بعض الأمرء تعاطى مهنة تطبيب الناس ووصف لهم الأدوية.

سابعاً: أن كثيراً من الأميرات "التتوخيات" كنّ يُتقنن القراءة والرسم وفن الخط.

ثامنا: يؤكد لنا "صالح بن يحيى" و"أحمد بن سباط" أن أهم ما كان على الأمير التتوخي أن يُثَقِّنَه ويُجيدَه، هو "فن الخط" بعدة أقلام. وأن كثيرا منهم كانوا سَبَّاقِينَ في هذا الميدان. وقَلَّمَا كان "ابن يحيى" يذكرُ أميراً من الأمراء "التتوخيين" دون أن يصفه بأنه كان ذا كتابة مليحة .

هذه الأمور، وهي من الشؤون الثقافية اهتم لها "التتوخيون" وأتقنوها أيما إتقان وبرعوا بها كما أنهم اهتموا بتتقيف نسائهم. كل ذلك يدل بوضوح على أن الأمراء "التتوخيين"، كانوا ذوي عقول مميزة مبدعة، ونفوس قوية منيعة، دفعتهم في حقل الثقافة إلى مراتب مميزة. يقول شاعرهم الأمير "سيف الدين التتوخي":

وخير سجية للمرء عقلٌ
يميز بين ضررٍ وانتفاع

وقد سبقه "أبو العلاء المعري":

كذبَ الظنُّ لا إمام سوى العف.....ل مشيراً في صبحه والمساء

إذا فإتقان فن الخط كان ميزةً شملت أكثر أمراء التتوخيين وهم حفدة "المناذرة التتوخيية"، وبرع منهم كثيرون في هذا المضمار. إلا أنني سأقتصر على ذكر واحد منهم هو الأمير "عز الدين جواد بن علم الدين سليمان". كان ذا قوة بدنية، وقدرة عقلية فائقة، وذكاء خارق. اجتمع له الذكاء والمعرفة⁴²

برع هذا الأمير بفن الخط العربي، كتب على "الشيخ بهاء الدين محمود بن محمد" خطيب "بعلبك" و"شيخ البلاد الشامية خاصة بالخط" المنسوب الفائق" و"طارق شيخه بقلم" الطومار"⁴³.

كان للأمير "جواد" اختراقات لم يسبقه إليها غيره، منها أنه كتب آية الكرسي على حبة أرز، وقد شاهدها "ابن يحيى" عياناً وقال: "ورأيت في آخر الآية: وكتبه "جواد"، والكتابة واضحة قريتها ولم يَنْعَجِمْ عني شيء"⁴⁴ كان الأمير "جواد" يُوقِّع أعماله الخارقة بفن الخط. خسارة أن تضيع هذه الأعمال ولا يبقى منها شيء. ولكن هل عرف التاريخ قبل هذا الأمير خطاطاً كتب على حبة الأرز؟. إنَّ قول "ابن يحيى": "وله اختراقات لم يسبقه إليها أحد غيره" هو قول أكيد وصحيح. وقد سَعَيْتُ إلى كثير من المراجع المتاحة عن فن الخط، قديمها وحديثها، فلم أقع على أي ذكر لوحد سبق الأمير "جواد" إلى الكتابة البالغة الدقة على حبة أرز. وأكاد أجزم مع "ابن يحيى" أنه السَّبَّاق في هذا الفن. ذكرت مراجع فن الخط العربي أقلاما كثيرة، هي في غاية الدقة والرفاهة، كقلم "العَبَّار" وقلم "عُبَّار الحلبة" وقلم "صغير العَبَّار"⁴⁵. وتحدثت المراجع عن كثير ممن كتبوا الخطوط الدقيقة ولكنني لم أقع على من كتب على حبة الأرز قبل الأمير "جواد".

ومن العجيب والمُلفت، أنه بعد عصر هذا الأمير، قد نبغ كثير من كبار الخطاطين في بلاد العروبة الإسلام، فكتبوا خطوطا في غاية الدقة والرفاهة، ولم يجرؤ واحدٌ منهم، أن يكتب آية الكرسي على حبة أرز، حتى ظهر واحدٌ من حَفَدَةِ هذا الأمير، ومن أبناء قومه عنيت به العبقرية النابغة المرحوم "الشيخ نسيب مكارم".

و لهذا الرجل عليّ حق الشهادة. ففي عام 1957 و أنا محامٍ بالجنايات، كنت وكيلاً لشاب أُتهم بقتل فتاة بعد اغتصابها. وقد استند الإدعاء إلى رسالة زعم أن الشاب وجهها للفتاة. عيّنت المحكمة الشيخ نسيب "خبيراً لصحة الخط. إلتقيته في مكتبه لأول مرة، و سارت مُجريات الدعوة، وأصدر الشيخ تقريره بعدم صحة الرسالة. و صدر الحكم ببراءة الموكل. وقد سمعتُ رئيس محكمة الجنايات، يقول بعد ذلك: "إن ضمائر القضاة ترتاح عندما تعتمد تقارير "الشيخ نسيب مكارم" لأنها تقارير صحيحة لسببين، الأول علمُ الشيخ و معرفته، و الثاني: ضميره الذي لا يرقى إليه الشك".

يومها بدأتُ بيني و بينه صداقةً استمرت إلى آخر حياته رحمه الله. لن أتحدث عليه كخطاط، فقد كفانا ابنه "الدكتور سامي مكارم" مؤونة الأمر، في الكتاب الرائع الذي وضعه عن والده "الشيخ نسيب مكارم"⁴⁵.

سأتحدّث عن الإنسان الفنان و الإنسان المؤمن.

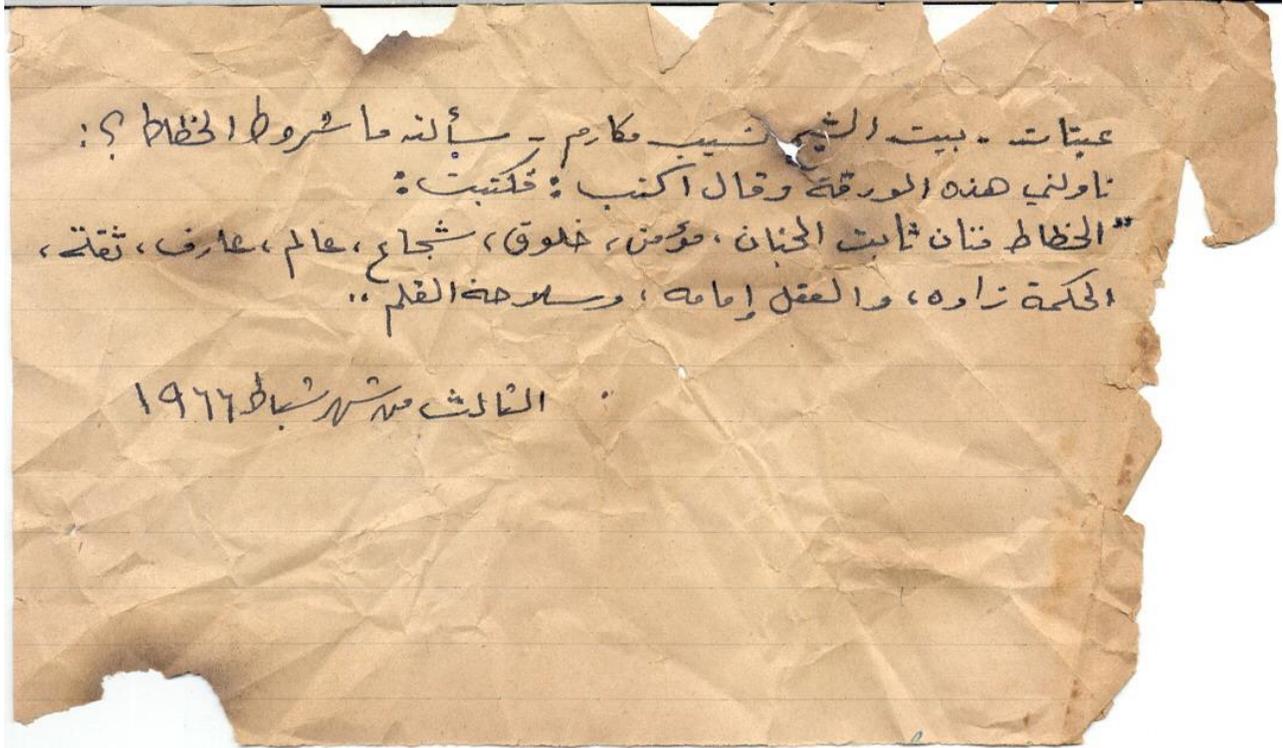
كان "الشيخ نسيب مكارم" يقف بين الفن و الإيمان يطلبهما معاً. كأنّ "عقله" أبقى عليه الإدراك و حسب، وكأنّ "نفسه" منحتة أن يتجاوز إلى أعمق. فإذا هو يدرك في حسّه، ويحسُّ في إدراكه، فيغدو كلما عمق صفاً، وكلما سبر الأغوار رقّ وشفّ.

تفتّح خياله على عبقرية موهوبة، فزادته الموهبة و الإرادة شوقاً للمعرفة، وزادته المعرفة توقاً "للحكمة و العقل". ومن "العقل" و "الحكمة" اتخذ لنفسه نبراساً يتلمس بنوره طريق الحقيقة. وقد عرفته طوال حياته عاشقاً متلهفاً في سعيه إلى الحقيقة بموهبة فنية فذة، و إيمان صادق ثابت، راح الشيخ يُفلسفُ دنياه، عبّر نتاج عبقرية، بخوارق الإبداعات التي لم يسبقه إليها أحد، و باعتقادي، أن لن يلحقه إليها أحد.

فيلسوف اعتزل شؤون دنياه بفنه و إيمانه. فهو في الفن تجاوز "الأيمن" و "الآن" و اخترق حدود "الكيف". هو في ميدان إبداعه يُصنّو و يتعبد، وهو في مُصنّاه يُبدع و يتفنن. وهو في كلا الحالين على نشوة العاشقِ الجاهدِ نحو بلوغ الجمال المطلق، جمال الواحد الأحد. فنان جعل من الخط تعبيراً و مظهراً لروحه المتدفقة بالجمال و الخير. تارة تكون هذه الروح في سعة الدنيا بمظهرها، و تارة تُرقّ و تشف حتى لتكاد تختفي كذرات الباطن الذي لا يدركه إلا أولي الأبواب. و تنعكس فلسفة الشيخ على إبداعه، فتارة يكتب الخط كبيراً و تارة ينتهي الخط في الدقة حتى لتخاله "غبار الحلبة".

أكدّ "ابن مقلة" في رسالته حول الخط والقلم: " أن أهم صفات الخطاط أن يكون شجاعاً مقداماً عندما يُقبل على الكتابة، وأن يكون عفيف النفس، حسن المعاملة، لين الجانب، سمح الأخلاق، يقدم النصيحة لمن يطلبها ". كأنني "بابن مقلة" يُعدّد صفات "الشيخ نسيب مكارم" وقد عرّفنا فيه شخصياً،

وعرفها كل من عرف الشيخ والنقاه. وجدت بين أوراق مكتبتي ورقة مؤرخة في 3 شباط 1966 "عيتات" بيت
"الشيخ نسيب مكارم". في هذا اللقاء سألتُ الشيخ ما شروط الخطاط؟ فناولني ورقة وقال أكتب: فكتبت



"الخطاط فنانٌ ثابتُ الجنان، مؤمنٌ، خلوقٌ، شجاعٌ، عالمٌ، عارفٌ، ثقةٌ، الحكمة زاد، والعقل إمامه،
وسلاحه القلم". ثم تناول الورقة من يدي ونظر إليها وقال لي لا بأس: وفهمت الرسالة بأن خطي سيء،
فقد كان رحمه الله صاحب طرفة لبقة مهذبة. في كل قرأتي عن فن الخط العربي لم أجد أجمل من تعريف
"الشيخ نسيب مكارم" للخطاط. أما أنا فما ذكرته يوماً إلا فارساً عربياً يمتطي صهوة جواده، ويمتشق سيفه "
القلم"، يحارب الجهل والكبرياء، ويذود عن الحكمة والإبداع والجمال.

أما صديقي الدكتور "سامي مكارم"، فهو فنان يرتحل أبداً من مقام إلى مقام، في رحلة صوفية
يكابد مشاقها بفرح، علّه يبلغ مقام المكاشفة والإشراق.

يُحطُّ لوحاته معتمداً إبراز الأحرف العامودية كالألف والكاف فيسافر معها قلّمه إلى أعلى، حتى
لتبدو مسالك ابتهاج إلى الله وتوقاً للفناء في الحق. وتغدو اللوحة الخطية بين يديه "إشارةً انخطاف صوفي"،
وقد تَخَلَّتْ عن مضمونها الظاهر، متسامية نحو جمال باطنها. فالناظر إليها ببصره يعجز عن أدراك
كنهها، أما الناظر إليها ببصيرته فمُدْرِكُهُ أعمق وأبعد مدى، "محي الدين عربي"

"سامي مكارم" تخطت حروفه قواعد الالتزام، والهندسة والنسب الفاضلة، وراحت تبحث لنفسها عن نسبٍ روحية عميقة، فكأنها أشارت إلى تجربة صوفية خفية. لم تعد اللوحة عنده قائمة على عنصر الحرف والخط، بل أضاف في لوحته اللون والشكل. تماهت عناصر لوحته، بعضها ببعض، محتفظة في داخلها بصراع خفي يُصوّر صراع "السالك" بين، المعصية والطاعة، بين الدنيا والآخرة، بين الباطل والحق، ليصل بعد هذه التجربة المريرة إلى "الحقيقة" و"الوحدانية". الحرف واللون والشكل كلها "وسيلة إشارة" أكثر منها "وسيلة عبارة"، "محي ابن عربي" وسيلة إشارة إلى وحدة تمحي في وهجها الكثرة.

يقول "الدكتور سامي مكارم": " بقيت اللوحة الخطية الصوفية تنحو هذا المنحى، حتى بلغت قمماً من الجمال شاهقة، وأخذت تسافر في مقامات الفن التجريدي، على أيدي فنانيين كبار، من عرب وفرنس وأتراك وغيرهم، إلى أن وصل هذا الفن إلى العصر الحديث، فإذا هو في بعض أعماله يوغل في هذا المنحى الصوفي، فيتخلص بعض الفنانين، وأنا منهم، من القواعد الصارمة للحروف متحررين من المعنى الظاهر (EXOTERIQUE) لعلاقة "اللوح المحفوظ" بالقلم"، إلى علاقة أعمق، حيث يتزواج "القلم" و"اللوح" المحفوظ، تزواجاً يتعدى الجمع بين "أثنين مفروقين" إلى "حقيقة الجمع بالواحد"، وهي توبة "اللوح" إلى "القلم" وتوبة "القلم" إلى مبدعه. وإذا "اللوح" "فيضُ القلم"، وإذا "القلم" "إسقاط الله" (PROJECTION). وهكذا تُصبح اللوحة الخطية ذات أبعاد كثيرة، تُشير كلها إلى حقيقة واحدة، ويفنى كلا الفنان والمُتلقي عن العقلانية الهندسية الصارمة، متجهين بالحب، من الحب إلى الحب.

المصادر ومراجع البحث

¹ ابن خلدون المقدمة - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت ص: 417

² نفس المرجع السابق ص: 418

³ نفس المرجع السابق ص: 418

⁴ نفس المرجع السابق ص: 418

⁵ القرآن الكريم - سورة العلق - آية: 1، 2، 3.

⁶ القرآن الكريم - سورة النحل آية- 6

- 7 حديث شريف نقله مسلم والترمذي عن أبين مسعود ذكره السيوطي في الجامع الصغير
- 8 الغزالي - أحياء علوم الدين - عالم الكتب دمشق - مطبعة المجلي - جزء 4 - ص: 254
- 9 الغزالي - نفس المرجع السابق ص: 257
- 10 الغزالي - نفس المرجع السابق ص: 257
- 11 حديث شريف - رواه البيهقي في شعب الإيمان وذكره السيوطي في الجامع الصغير
- 12 الغزالي - نفس المرجع السابق - ص: 261
- 13 الغزالي - نفس المرجع السابق - ص: 257.
- 14 ابن عربي - كتاب الجلال والجمال - طبعة دائرة المعارف العثمانية - مصورة في دار أحياء التراث العربي - بيروت ص: 3.
- 15 عبد الكريم الجيلاني - كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر - نسخة مصورة في معهد غوته - جزء 1 ص: 59.
- 16 القرآن الكريم - 1، 2.
- 17 أبين عربي - كتاب عقلة المستوفز - مطبعة بيريل - ليدن سنة 1336هـ، ص: 41.
- 18 أبين عربي - نفس المرجع السابق - ص: 55.
- 19 د. سامي مكارم - محاضرة بتاريخ 17/9/2001 - فن الخط العربي والتصوف.
- 20 أبين عربي - الفتوحات المكية - دار صادر - جزء 3 - ص: 399، د. سامي مكارم - نفس المرجع السابق.
- 21 د. أيمن فؤاد سيد - الدولة الفاطمية تفسير جديد - الطبعة الأولى 1994، المقدمة - ص: 48.
- 22 SYLVESTER DE SACY - Expose de la religion des Druzes
- 23 د. محمد عنان - الحاكم بأمر الله - الطبعة الثالثة - ص: 104.
- 24 A VAN MULLER- DER ISLAM-Berlin - 1885.
- 25 محمد جميل بهيم - قوافل العروية ومواكبها، الطبعة الأولى 1948، جزء 1 - ص: 28.
- 26 المقرئزي - الخطط - طبعة - مؤسسة الفرقان 2002 - تحقيق د. أيمن سيد - المجلد الثاني - ص: 311، 312.
- 27 المقرئزي - اتعاض الحنفا - مخطوطة اسطنبول - لوحة 52. B.
- 28 المقرئزي - الخطط - نفس الطبعة السابقة - المجلد الثاني - ص: 358.
- أبو شامة - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين - الجزء الأول - ص: 507.
- 29 أبين الصيرفي - تاب الإشارة إلى من نال الوزارة - ص: 26.
- 30 المقرئزي - اتعاض الحنفا - بطوطة اسطنبول لوحة 5.7. A.
- د. محمد عنان - كتاب الحاكم وأسرار الدعوة الفاطمية - الطبعة الثالثة - ص: 388.
- 31 المقرئزي - الخطط - نفس المرجع السابق - المجلد الثاني - ص: 336، 337.
- 32 المقرئزي - المرجع السابق - المجلد الثاني - ص: 502.
- 33 CRESWELL-CAIRO-1952 ترجمة علوت وحداد - مطبعة زهراء الشرق - القاهرة - ص: 97.
- 34 CERSWELL المرجع السابق - ص: 44.
- 35 المقرئزي - الخطط - نفس المرجع السابق - المجلد الثاني - ص: 507.
- 36 محمد جميل بهيم - المرجع السابق - الجزء الأول - ص: 86.

- المقريزي نقلا عن المسبحي - المرجع السابق - المجلد الثاني - ص: 502، 503.
- ³⁷ عبدالله النجار - مذهب الدرور والتوحيد - دار المعارف بمصر 1965 - ص: 18.
- ³⁸ د. سامي مكارم - لبنان في عهد الأمراء التتوخيين - دار صادر - ص: 61.
- ³⁹ صالح بن يحيى - تاريخ بيروت - تحقيق د. كمال صليبي وغيره - دار المشرق ص: 4.
- ⁴⁰ ابن سباط - كتاب صدق الأخبار - تحقيق د. نائلة فائدية - ص: 7، 8.
- ⁴¹ صالح بن يحيى - نفس المرجع السابق - ص: 172.
- ⁴² "الفائق والطومار" من أنواع الأقلام التي كتبت فيها النصوص القديمة خاصة قرآن المدينة المنورة - وقد زالت هذه الأقلام كلها.
- ⁴³ صالح بن يحيى - نفس المرجع السابق - ص: 172.
- ⁴⁴ ناجي عز الدين - بدائع الخط العربي - بغداد - 1972 - ص: 462.
- ⁴⁵ د. سامي مكارم - نسيب مكارم - ذكرى
-